بحث محكم | قسم الدراسات الدينية | 10 غشت 2023

التشيع في البلاد التونسية:
مدخل تاريخي مفاهيمي

صلاح الدين العامري
باحث تونسي

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2023
All rights reserved © 2023

التشيع في البلاد التونسية:
مدخل تاريخي مفاهيمي[1]

1 - البحث مقتطف من كتاب التشيع في البلاد التونسية؛ بحث في النشأة والتحولات، الصادر عن دار مؤمنون بلاحدود للنشر والتوزيع.

تمهيد

انطلاقاً من مجموع الأسئلة التي طُرحت علينا، اخترنا افتتاح البحث بفصل أوّل فيه مدخلان؛ الأول تاريخيّ والثّاني اصطلاحي يؤطّران المسألة للقارئ ويزيلان عنها اللّبس الذي قد يعيق فهمه لما سيقال حولها في الفصول الثّلاثة اللاحقة، أو يضعف الرغبة لديه في الاطلاع على المراحل التي مرّ بها التشيّع بسبب ضبابيّة معانيه في الذهن.

سيتركّز المدخل التاريخي على أهم الأحداث المفصليّة التي مهّدت لانقسامات الجماعة الإسلاميّة الكبرى إلى جماعات بعد أن طُرح السُّؤال المعضلة: **من يحكم بدل كيف نحكم؟ وهي سؤال سياسي بامتياز**. واختزلنا مظاهر الأزمة في ثلاثة أحداث أساسية هي اجتماع سقيفة بني ساعدة، وما اصطلح عليه المؤرّخون الفتنة الكبرى وواقعة كربلاء؛ ففي السقيفة تشكّلت ملامح الانشقاق بين المسلمين بعد اختلافهم حول خليفة رسولهم صلى الله عليه وسلم، وفي الحربين بين علي بن أبي طالب (ت. 40هـ/660م) ومعاويّة بن أبي سفيان (ت. 60هـ/680م) تحوّل الانشقاق إلى انقسام سياسي واجتماعي وعسكري، وعلى أرض الطف من كربلاء العراق خُطّ بدماء الحسين بن علي بن أبي طالب (ت. 61هـ/681م) وأتباعه تأبيد الانقسام وإقرار عدم التوافق بين المسلمين حالة نهائيّة وطبيعيّة.

سنطرح في المدخل المفاهيمي أهم مقولات المذهب الشيعي الإمامي الاثني عشري التي أسهمت في تشييد أركان العقيدة الإماميّة. وحصرناها في ثلاثة مصطلحات هي **وصيّة** الرسول لعلي بالخلافة، و**إمامة العلويين الإلهيّة** ومسألة **المهدويّة**. ويؤكّد الشيعة أنّ في غدير خم أوصى الرسول لعلي وبنيه بالخلافة؛ فبالإمامة الإلهيّة تميّز أبناء فاطمة عن سائر الناس وبواسطتها توارثوا التكليف الإلهي دون غيرهم، وبظهور الإمام المهدي، وهو الإمام الثاني عشر، يستقر حال الإسلام والمسلمين وبجهوده يستعيد الوجود توازنه. وتجدر الإشارة إلى أنّ تمثّل هذه الأحداث والمفاهيم يحمل بين تفاصيله الخطوط العريضة للخلاف السنّي الشيعي.

المدخل التّاريخي

I- سقيفة بني ساعدة بين المقدّس والمدنّس

من المؤكّد أنّنا لا نهدف إلى المساهمة في دراسة تعقيدات القرن الهجري الأول من الزوايا الجدليّة التقليديّة، وهي مرحلة إشكاليّة بما تحمله الكلمة من دلالات، ولا نروم مراجعة الأحداث التاريخيّة والسياسيّة المتعدّدة التي عرفتها القرون الأربعة اللاحقة، والفصل فيها والحال أنّها نالت من الجدل والتدافع الفكري ما يغني عن أيّ إسهام جديد من الجنس نفسه، بل نسعى إلى إعادة استحضارها لتبيّن تأثيرات أحداثها في البنية الفكريّة والاجتماعية والسياسيّة للمسلمين، وتبئير موقعها في تمثّلاتهم للواقع ومشاكله وللحلول اللازمة لها. نبحث عن هذه الاستفادة في ظلّ اقتناعنا بحتميّة التفاعل بين واقع الإنسان وفكره. وقد عبّر عبد العزيز الدّوري عن هذا التعالق حين اعتبر مادّة التاريخ «مجموعة سجلات وآثار وانطباعات وأخبار شفويّة ومكتوبة، وهي نتاج الفكر والعاطفة والخيال، وهي رهينة بالظّروف التي حصلت فيها والتي كُتبت بها»[1].

يشيع بين عديد الدّارسين لتاريخ صدر الإسلام أنّ الصّراع السياسي حول الخلافة في إطار «الدولة» الإسلاميّة، انطلق مع أحداث السقيفة، وفي إثر وفاة الرسول محمد بن عبد الله (ت. 11هـ/632م). ولكنّ العودة إلى متون بعض الأخبار حول هذه المرحلة، تؤكّد أنّ التفكير السياسي في الخلافة بدأ قبل السقيفة. ونجد هذا الموقف فيما أورده الطبري حول بحث العباس بن عبد المطّلب (ت. 32هـ/653م) عن إمكانيّة أن يكون أحد الهاشميين خليفة للرسول. وقد خاطب العباس ابن أخيه علي قائلاً: «إنّ رسول الله سيُتوفّى في مرضه هذا، وإنّي لأعرف الموت في وجوه بني عبد المطلب، فاذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم واسأله فيمن يكون هذا الأمر؟»[2]. لم يكن العباس متأكّداً من تولّي أحد بني هاشم مسؤوليّة الخلافة، وكان يفكّر في فرضيّة خروج هذا الأمر منهم، شأنه شأن علي، وكان مستعدّاً لقبول هذه الفرضيّة على أنْ يوصي بهم خيراً[3]، بل إنّ علي بن أبي طالب، حسب ابن الأثير، تجنّب معرفة موقف الرّسول من الخلافة؛ لأنّ رفضه تعيين أحد بني هاشم يجعل الموقف ذا طابع ديني وفيه إلزام قياساً على مسائل أخرى. ويستحيل حينها قَبول الناس بالهاشميين بعد ذلك، أو إنّه يسهّل الطعن فيهم[4]. وفي نهج البلاغة اعتبر علي بن أبي طالب الخلافة «ماء آجِنٌ ولقمة يَغَصُّ بها آكلها».[5]

---

1 - عبد العزيز الدوري، مقدّمة في تاريخ صدر الإسلام، مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت، ط1، 2005م، ج1، ص19

2 - ابن الأثير، الكامل في التاريخ، نظّمه أبو صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدوليّة، د.ت، ج2، ص 319

3 - ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج2، ص319

4 - م.ن، ص319 ذكر أبو بكر أحمد بن عبد العزيز الجوهري (ت. 323هـ/935م) الخبر بالصيغة التالية «خرج علي عليه السلام على النّاس من عند رسول الله صلّى الله عليه وآله في مرضه، فقال له النّاس: كيف أصبح رسول الله صلّى الله عليه وآله يا أبا الحسن؟ قال: أصبح بحمد الله بارئاً. فأخذ العبّاس بيد علي ثم قال: يا علي أنت عبد العصا بعد ثلاث احلف لقد رأيت الموت في وجهه، وإنّي لأعرف الموت في وجوه بني عبد المطّلب، فانطلق إلى رسول الله صلّى الله عليه وآله فاذكر له هذا الأمر فإن كان فينا أعلمنا، وإن كان في غيرنا أوصى بنا. فقال: لا أفعل والله إن مُنعناه اليوم لا يُؤتيناه النّاس بعده. قال: فتوفي رسول الله صلّى الله في ذلك اليوم». السقيفة وفدك، جمع وتحقيق محمد هادي الأميني، طهران- مكتبة نينوى الحديثة، د.ت، ص45

5 - علي بن أبي طالب: نهج البلاغة، اختيار الشريف الرضي، مؤسسة أنصاريان للطباعة والنشر، قم، ط7، 2008م، ص33

تُمَاثل حيرة علي في جانب منها موقف عمر بن الخطّاب (ت. 23هـ/644م) فيما عُرف بحديث «رزيّة الخميس» في رواية عن ابن عبّاس قال فيها: «يوم الخميس وما يوم الخميس -ثم جرت دموعه على خدّيه- اشتدّ برسول الله صلى الله عليه وسلم مرضه ووجعه، فقال: ائتوني بدواة وبيضاء أكتب لكم كتاباً لا تضلّون بعدي أبدا. فتنازعوا- ولا ينبغي عند نبيّ تنازع- فقالوا إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم يهجر. فجعلوا يعيدون عليه فقال دعوني فما أنا فيه خير مما تدعونني إليه»[6]. وبقطع النظر عمّا أثاره رفض طلب الرسول بزعامة عمر من تفسيرات وما لحق به من توظيفات إيديولوجية لدى الشيعة، فإنّه يخفي قلقاً أملته الرغبة في زعامة مملكة آخذة في التوسّع. والرغبة في الزعامة ليست وليدة الظرف، بل هي جبلّة في الإنسان غذّتها لدى العرب صراعاتهم الطويلة وعمّقها تفاخرهم بالنسل والأنساب.

فعلى الرغم من حالة الهلع التي ألمّت بالحاضرين بموت الرسول وعدم إتمام واجب الدفن[7]، فإنّه لم يغب عن الأنصار المساهمين في إنجاح الدّعوة المحمّديّة أنّ المسلمين صاروا دون زعيم، فاجتمعوا «في سقيفة بني ساعدة ليبايعوا سعد بن عبادة»[8] مقدّمين الأهمّ على المهمّ لديهم في تلك المرحلة. وتأكّدت أهميّة الخلافة حتى لدى أقرب صحابته من المهاجرين، إذ لمّا تفطّن أبو بكر لما يُحاك، أتى جماعة السقيفة «ومعه عمر وعبيدة بن الجرّاح»[9] وأنكر عليهم اختيارهم زعيماً من بينهم، فدفعهم إلى التنازل حتى «قالوا: منّا أمير ومنكم أمير. فقال أبو بكر: منّا الأمراء ومنكم الوزراء»[10]. كرّس هذا الحوار مسألة في غاية الأهميّة، وهي ظهور كيانين سياسيين يتنافسان من أجل قيادة المسلمين تحت تأثير تراتبيات قديمة[11].

عادت الذاكرة القبليّة المثقلة بأهميّة النسب في الأعراف العربيّة وبأفضليّة قريش إلى الظهور، وجعلت أبا بكر يقترح عمر بن الخطّاب أو أبا عبيدة ابن الجرّاح لقيادة المسلمين، إلّا أنّ عمر حسم الأمر بحزمه المعهود وشخصيته الفريدة لفائدة أبي بكر فقال: «أيّكم تطيب نفسه أن يخلف قدمين قدّمهما النبيّ صلى الله

---

6 - ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج2، ص319 رواه مسلم في صحيحه على النحو التالي «لما حضر رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي البيت رجال فيهم عمر بن الخطاب، فقال النبي صلى الله عليه وسلم (هلم أكتب لكم كتاباً لا تضلون بعده). فقال عمر: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد غلب عليه الوجع. وعندكم القرآن. حسبنا كتاب الله. فاختلف أهل البيت. فاختصموا. فمنهم من يقول: قربوا يكتب لكم رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاباً لن تضلوا بعده، ومنهم من يقول ما قال عمر. فلما أكثروا اللغو والاختلاف عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (قوموا). قال عبيد الله: فكان ابن عباس يقول: إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب، من اختلافهم ولغطهم» كتاب الوصيّة ح. 22 - (1637). رواه البخاري بهذه الصيغة: «حدثنا إبراهيم بن موسى: أخبرنا هشام، عن معمر، عن الزُهري، عن عبيد الله بن عبد الله، عن ابن عباس قال: لما حُضِرَ النبي صلى الله عليه وسلم قال، وفي البيت رجال فيهم عمر بن الخطاب، قال: (هلمَّ أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده). قال عمر: إن النبي صلى الله عليه وسلم غلبه الوجع، وعندكم القرآن. فحسبنا كتاب الله. واختلف أهل البيت، اختصموا: فمنهم من يقول: قرّبوا يكتب لكم رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاباً لن تضلوا بعده، ومنهم من يقول ما قال عمر، فلما أكثروا اللغط والاختلاف عند النبي صلى الله عليه وسلم قال: (قوموا عني). قال عبيد الله: فكان ابن عباس يقول: إن الرَّزيَّة كل الرَّزيَّة ما حال بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب، من اختلافهم ولغطهم». كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، ح. 6932

7 - أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تاريخ الرّسل والملوك، تحقيق أبو الفضل محمد إبراهيم، دار المعارف بمصر، د.ت، ط2، ج3، ص200

8 - م.ن، ج3، ص201

9 - م.ن، ج3، ص201

10 - م.ن، ج3، ص202

11 - الحجرات: 12 {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ}.

عليه وسلم»[12]. ولئن أسرع عمر بمبايعة أبي بكر ومساندة مجموعة من الحاضرين له، فإنّ الأنصار- أو بعض الأنصار- قالوا: «لا نبايع إلّا عليّا»[13]. وانقسم المسلمون بهذه المواقف «عند وفاة الرّسول إلى كتل على أساس قَبَليّ، وكان لكلّ كتلة مرشّحها»[14].

مثّل ظهور علي بن أبي طالب في المنافسة على الخلافة رغم غيابه عن السقيفة[15]، بداية مشكل حقيقي في التنافس من أجل السلطة. يقول الطبري: «أتى عمر بن الخطاب منزل علي وفيه طلحة والزّبير ورجال من المهاجرين فقال: والله لأحرقنّ عليكم أو لتخرجنّ إلى البيعة»[16]. وفي رواية أخرى للطبري «بايع الناس واستثبتوا للبيعة، وتخلّف علي والزّبير، واخترط الزبير سيفه وقال: لا أغمده حتى يبايع علي...فانطلق إليهم عمر، فجاء بهما تعبا، وقال لتبايعان وأنتما طائعان، أو لتبايعان وأنتما كارهان، فبايعا»[17].

تذكر بعض الأخبار أنّ عليّاً لم يبايع أبا بكر إلّا بعد ستّة أشهر في لقاء لوم ومصالحة بينهما قال فيه علي: «لم يمنعنا من أن نبايعك يا أبا بكر إنكار لفضيلتك، ولا نفاسة عليك بخير ساقه الله إليك، ولكنّا كنّا نرى أنّ لنا في هذا الأمر حقّا فاستبددتم به علينا، ثمّ ذكر قرابته من رسول الله، صلّى عليه وسلّم وحقّهم. ولم يزل عليّ يقول ذلك حتى بكى أبو بكر»[18]. اعتبر علي في هذا الخبر الخلافة خيراً يسوقه الله إلى الإنسان شأنها شأن الملك، ولم يأت على الجانب العقدي الذي ستُصبغ به لاحقاً في شكل حقّ إلهي، واعتبر خلافة أبي بكر استبداداً دون أن يعدّها كفراً أو ردّة عن الدّين ولا مخالفة لأمر الله ورسوله. والذي يجعلنا نرجّح هذه القراءة ما صوّرته كتب الأخبار من شجاعة عليّ وإقدامه على نصرة الدعوة الإسلاميّة، وعلى ما عُرف عنه من تقوى وعلم. وكل هذه المواصفات تجعل التسليم بسكوت عليّ عن أمر الله ورسوله في الخلافة أمراً صعبا.

إنّ مراجعة أغلب ما تنقله الأخبار من حوارات بين الصحابة حول خلافة الرّسول في السقيفة، تؤكّد أنّ ما دار بينهم لا يحمل أيّ بعد ديني عقديّ، بل استند إلى مقاييس أخلاقيّة مثل القرابة في حالة علي بن أبي طالب والصحبة وكبر السنّ في حالة أبي بكر الصدّيق والنصرة في حالة سعد بن عُبادة، وأنّ ما دار بينهم خوض في السياسة وليس في الدّين مثلمّا ستؤكّد الشيعة لاحقاً.

12 - الطبري، تاريخ الرّسل والملوك، ج3، ص202

13 - الطبري، تاريخ الرّسل والملوك، ص202

14 - عبد العزيز الدوري، مقدّمة في تاريخ صدر الإسلام، ج1، ص56

15 - روى الطبري عن عمر بن الخطاب قوله في بيعة أبي بكر «وإنّه كان من خبرنا حين توفى الله نبيّه صلى الله عليه وسلم، أنّ عليّاً والزّبير ومن معهما تخلّفوا عنّا في بيت فاطمة وتخلّفت عنّا الأنصار بأسرها» تاريخ الرّسل والملوك، ج3، ص205

16 - الطبري، تاريخ الرّسل والملوك، ج3، ص202

17 - م.ن، ج3، ص203

18 - م.ن، ج3، ص208

بناء على المكانة العقديّة للرسول يكون من غير اليسير على أصحابه أن يفكّروا في خلافته بالمعنى الدّيني في هذه المرحلة. وأقصى ما يمكن أن يخطر ببال الراغبين في الخلافة هو الحفاظ على أسس الرّسالة وحمايتها على الحال التي تركها عليها صاحبها. فالوحي توقّف والرسالة خُتمت والدّين اكتمل في الإسلام الرسمي[19] ولا نبيّ بعد محمد[20]. وقال علي خامنئي في هذا المعنى الأصلي لمصطلح إمامة: «بعد رحيل النبي وظهور الانشقاق الفكري والسياسي بين المسلمين، اتخذت كلمة الإمامة والإمام مكانة خاصّة؛ لأنّ مسألة القيادة السياسيّة شكّلت المحور الأساس للاختلاف. والكلمة كان لها في البداية مدلول سياسي أكثر من أيّ مدلول آخر، ثم انضمّت إليها بالتدريج معان أخرى»[21].

أكّد علي عبد الرّازق الطابع السياسي لأحداث السقيفة، فقال: «كانوا يومئذ إنّما يتشاورون في أمر مملكة تُقام، ودولة تُشاد، وحكومة تُنشأ إنشاء. لذلك، جرى على لسانهم يومئذ ذكر الإمارة والأمراء، والوزارة والوزراء، وتذاكروا القوّة والسيف، والعزّ والثروة، والعدد والمنعة، والبأس والنجدة. وما كان ذلك إلّا خوضا في الملك، وقياما بالدولة»[22]. وفسّر عبد الرازق مقاربته للأحداث على هذا النحو بما «كان من تنافس المهاجرين والأنصار وكبار الصحابة بعضهم مع بعض، حتى تمّت البيعة لأبي بكر»[23]، واعتبر هذا الخليفة، أوّل ملك في الإسلام. ويضيف عبد الرّازق «وإذا أنت رأيت كيف تمّت البيعة لأبي بكر، واستقام له الأمر تبيّن لك أنّها كانت بيعة سياسية ملكيّة، عليها كلّ طوابع الدولة المحدثة، وإنّها إنّما قامت كما تقوم الحكومات على أساس القوّة والسيف»[24]. ولئن قدّم عمر أبا بكر في السقيفة بحجّة رفعة مقامه الدّيني مقارنة ببقيّة المترشّحين، فإنّه اعتبر بيعة أبي بكر فلتة وقى الله المسلمين شرّها[25].

لم تمنع كيفيّة انتقال الحكم بعد وفاة الرّسول وواقعيّة أصحابه فكر المتخاصمين من رسم صور بمرجعيات متمايزة أدّت إلى واقع غير متجانس، بل شديد التعقيد. ففي حين لفّت الجماعة السنيّة هذه الحادثة بهالة من القداسة والتمجيد ورفعت كل المشاركين في اجتماع السقيفة إلى مرتبة المقدّس المطلق مع تفضيل للشيخين، شكّكت الجماعة الشيعيّة فيها وصنّفتها انزياحاً عن الإرادة الرسوليّة، ومخالفة للقصد الإلهي، باعتبار أنّ أبا بكر الصدّيق وعمر بن الخطّاب حرما علي بن أبي طالب حقّه في الخلافة في تقدير روادها. وصنّفت مقرّرات السقيفة مؤامرة وخروجاً على الدّين القويم. ويهمّنا في هذا السّياق، أن نعرض الرؤية الشيعيّة لوقعة السقيفة بلسان شيعي تونسي ما أمكن اعتباراً لخصوصية الكتاب وطبيعة التشيّع التونسي.

---

19 - المائدة: 3 {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً}.

20 - الأحزاب: 14 {وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ}.

21 - علي الخامنئي، قيادة الإمام الصادق (ع)، ترجمة محمد علي آذر شاب، طهران، مؤسسة الهدى للنشر والتوزيع، 1424هـ/2003م، ط3، ص68

22 - علي عبد الرّازق، الإسلام وأصول الحكم، دراسة ووثائق محمد عمارة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط2، 1988م، ص182

23 - م.ن، ص182

24 - علي عبد الرّازق، الإسلام وأصول الحكم، ص185

25 - الطبري، تاريخ الرّسل والملوك، ج3، ص205

قال التيجاني السماوي في هذا المعنى بعبارة واضحة تختزل بدقّة القراءة الشيعيّة لاجتماع السقيفة: «ومن حيثيات البيعة يتبيّن أنّ التخطيط لإقصاء علي (ع) عن السلطة والاستيلاء عليها لم يكن وليد ساعته كما تؤكّده الشواهد السابقة، وأنّ موقف الأنصار بقيادة سعد بن عبادة كان ارتجالياً لم يحضّر له من قبل كما يبدو ذلك من اختلافهم وتضارب آرائهم [...] كما تبيّن أنّ قادة الانقلاب الثلاثة أبا بكر وعمر وابن الجرّاح هم قادة الحزب القرشي المتآمر [لـــــ] لاستيلاء على السلطة وإقصاء علي بن أبي طالب عنها»[26]. وإلى هذا الحدّ لا يمكن الحديث عن تشكّل جماعة شيعيّة بالمعنى السوسيولوجي؛ لأنّ علي بن أبي طالب لم يعلن استقلاله عن الجماعة الإسلاميّة الكبرى وحافظ على التواصل مع الخلفاء الثلاثة قبله في كنف الاحترام والتعاون، ولم يثبت طعنه فيهم، وأظهر حرصاً على وحدة الجماعة المسلمة[27]. ومع ذلك يحرص الفكر الشيعي على تأكيد ظهور التشيّع في هذه المرحلة[28]. ونصنف هذا التأسيس ضمن سياقات الصراع الفكري اللاحق بالأحداث التاريخية التي أشرنا إليها سابقا في العلاقة بين المؤرّخ والتّاريخ، وبين الحقيقة والتّاريخ.

II- الفتنة الشاملة والاقتتال الشّرعي بين المسلمين

المقصود بالفتنة الشاملة هو شمول الصراع بين المسلمين المجالين الاجتماعي والعسكري بعد الاقتتال الجزئي بسبب الزّكاة في عهد أبي بكر، وهي صورة مستعادة لحالة الاقتتال القَبَلي قبل الإسلام، ولكن بغطاء ديني. ويمكن التأريخ لبداية هذه الفتنة، إذا استثنينا ما عُرف بحروب الردّة، بمنتصف خلافة عثمان بن عفان (الأمويّ) (ت. 35هـــ/655م) التي بانت سلبيّاتها بسبب اقترانها بالتجربة النّموذجيّة العمريّة السابقة لها. وقد كان لصورة عمر وسيرته الاستثنائية في التاريخ الإسلامي أثر عميق في التعامل مع خلفه وتمثّل صورهم. وتميّزت خلافة عثمان حسب جميع بسمتين: الأولى مكابرته في محاباته لعائلته، والثانية إفراطه في إباحاته وتسليفاته وتسهيلاته للأمويين[29]. وتجلّت سياسة عثمان الأسريّة في إسناد الولايات الإسلاميّة الكبرى لذويه، إذ عيّن معاوية بن أبي سفيان على الشام، وشقيقه من أمّه الوليد بن عقبة على الكوفة بدل سعد بن أبي وقاص، والحال أنّ الوليد من الطلقاء الذين استسلموا للإسلام عجزاً عن المقاومة يوم فتح مكّة وعبد الله بن سعد بن سرح (أخوه من الرضاعة) على مصر وعبد الله بن عامر بن كريز بن ربيعة بن حبيب على البصرة[30].

26 - محمد التيجاني السماوي، مؤتمر السقيفة نظرة جديدة في التاريخ الإسلامي، د.ت، د.ط، ص47

27 - علي الخامنئي، قيادة الإمام الصادق (ع)، ص28

28 - عبد الله الغريفي، التشيّع: نشوؤه، مراحله، مقوّماته، بيروت، مؤسسة العارف للمطبوعات، 1421هـــ/2000م، ط7، ص25 وما بعدها. يُنظر أيضاً: عبد الله فياض، تاريخ الإماميّة وأسلافهم من الشيعة منذ نشأة التشيّع حتى القرن الرابع الهجري، بيروت، مؤسسة الأعلمي، 1406هـــ/ 1986م، ط3

29 - هشام جعيط، الفتنة، جدليّة الدّين والسّياسة في الإسلام المبكر، بيروت، دار الطليعة، 2005م، ط5، ص77

30 - الطبري، تاريخ الرّسل والملوك، ج4، ص266

تذكر بعض المصادر أنّ عبد الرحمان بن عوف عاتب عثمان على سياسة المحاباة قائلاً: «إنّما قدّمتك على أن تسير فينا بسيرة أبي بكر وعمر، فخالفتهما وحابيت أهل بيتك»[31]. وتدفع هذه الأخبار في اتجاه توريط عثمان في تناسي مسؤوليته الأساسية التي أسّسها الرسول ودعمّها أبوبكر وعمر من بعده، والانزلاق في عقليّة التخاصم القَبَلي والتفاخر بالأنساب والالتحاف بالرّابطة الدمويّة الما قبل إسلاميّة. ويربط بعض الناقدين لعثمان هذه الصورة، بما ورد في قوله لعمرو بن العاص المُحتجّ على عزله عن ولاية مصر: «أما والله لأنا أعزّ منك نفرا في الجاهليّة قبل أن أُلِيَ إلى هذا السلطان[32]. فأنكر عليه ابن العاص تضييقه لمجال الدعوة المحمّديّة وردّ ‹دع عنك هذا، فالحمد لله الذي أكرمنا بمحمّد صلى الله عليه وسلم، وهدانا به. فقد رأيت العاص بن وائل ورأيت أباك عفان، فو الله للعاص كان أشرف من أبيك»[33].

إنّ السّمة الأبرز التي طبعت الصراع الإسلامي-الإسلامي في هذه المرحلة هي الروح القبليّة التي حكمت العلاقة بين أميّة وهاشم منذ ما قبل الإسلام. وستتضح معالمها أكثر مع معركتيْ الجمل (36هـ/656م) وصفّين، بل إنّ هذا الصراع الجديد سيختزل كلّ الصراعات تقريباً؛ لأنّ الأمويين يمثّلون روح العصبيّة القرشيّة بما تمثّله من أهميّة، وبما تحمله من تأثير، والهاشميون منافس تاريخي دعّمت الرسالة النبوية موقفه وقوّت شوكته. وكان أبو سفيان بن حرب شيخ بني أميّة دقّق حقيقة الصّراع وخلفياته وآفاقه بين المسلمين عامّة، وبين هاشم وأميّة خاصّة في أكثر من خبر ورد بالمصادر التاريخيّة. وذكر المقريزي في هذا السياق، أنّه لمّا أفضى أمر الخلافة إلى عثمان بن عفّان «أتى أبو سفيان قبر حمزة فركله برجله ثم قال: يا حمزة إنّ الأمر الذي كنت تقاتلنا عليه بالأمس قد ملكناه اليوم وكنّا أحقّ به من تيم وعدي»[34].

تحدّث ابن خلدون عن العصبيّة التي ينبني عليها الاجتماع العربي، فقال: «إنّ عصبيّة مضر كانت في قريش، وعصبيّة قريش في عبد مناف، وعصبيّة عبد مناف إنّما كانت في بني أميّة، تعرف ذلك لهم قريش وسائر الناس»[35]. وبرّر صاحب المقدّمة اختيار معاوية لابنه يزيد استناداً إلى هذا المعطى الموضوعي والتاريخي فقال: «والذي دعا معاوية لإيثار ابنه بالعهد دون من سواه، إنّما هو مراعاة المصلحة في اجتماع الناس واتفاق أهوائهم باتفاق أهل الحلّ والعقد عليه حينئذ من بني أميّة، إذ بنو أميّة يومئذ لا يرضون سواهم، وهم عصابة قريش وأهل الملّة أجمع وأهل الغلبة منهم»[36].

---

31 - ابن عبد ربّه، العقد الفريد، القاهرة، 1368هـ/ 1949م، ج4، ص280

32 - الطبري، تاريخ الرّسل والملوك،ج4، ص330

33 - م.ن، ج4، ص330

34 - تقي الدين المقريزي، النزاع والتخاصم فيما بين بني هاشم وبني أميّة، إعداد وتعليق صالح الورداني، القاهرة، الهدف للإعلام والنشر، د.ت، ص71 وانظر كذلك تردّد أبي سفيان في إعلان إسلامه بين يدي الرسول ص ص46-47 من نفس الكتاب.

35 - ابن خلدون، المقدّمة، دار العودة، بيروت، 1981م، ص382

36 - ابن خلدون، المقدّمة، ص166

تجسّم هذا الإحياء في شعار «الثأر لدم عثمان»، فكان هذا الدم «ضاغطاً على التاريخ السياسي طيلة قرنين أو ثلاثة قرون»[37]، بل مؤثّراً إلى حدود العصر الحديث بما انجرّ عنه من انقسامات سياسيّة ومذهبيّة. وجعل مقتل عثمان الصراع بين هاشم وأميّة أكثر قوّةً ووقعاً وتأثيراً في التاريخ السياسي ثم الثقافي للمسلمين، وانعكس ذلك في عدد القبائل المشاركة في معركة صفين، ومنها بكر بني وائل وعبد قيس وتميم وضبّة والرباب وقريش وكنان وأسد وبجيلة وخثعم وخزاعة وكندة وقضاعة ومهرة ومذحج وغيرها من القبائل التي تحدّث عنها نصر بن مزاحم (ت. 212هـ/827م)[38].

يمثّل هذا التحوّل العنيف في التاريخ الإسلامي إيذاناً باصطباغ التخاصم السياسي والعسكري بصبغة «مقدّسة». فالسلطة مثل المقدّس تقوم على الترغيب والترهيب[39]، وساعد على هذا التحوّل ظهور أم المؤمنين عائشة على ركح الأحداث قائلة: «أطلبوا بدم عثمان تعزّون الإسلام»[40]. وقد دعّم ظهور طلحة والزبير إلى جانبها فكرة الصبغة الدينيّة لطبيعة الصّراع. ويمتلك هذا الثلاثي، حسب جعيط، سلطة هائلةً في نفوس المسلمين، باعتبارهم يمثّلون شرعيّة معنويّة غير مؤسّسيّة تؤهّلهم للحديث باسم الإسلام[41] بحكم ارتباطهم بالرسول واقعاً وتاريخا. وقد أعطى انتساب أم المؤمنين عائشة إلى الرسول زواجاً، وانتساب طلحة والزبير إليه صحبة، وانتساب علي إلى آل بيته قرابة، بعداً «مقدّساً» للصراع بين المعسكرين. وقد وصفت عائشة قتلة عثمان بالبدو النهّابين والعبيد الآبقين[42]، وقالت: «سفكوا الدم الحرام واستحلّوا البلد الحرام وأخذوا المال الحرام واستحلّوا الشهر الحرام (الحج)»[43]، وبرّرت خروجها للحرب بطلب القصاص لدم عثمان المظلوم، التزاماً بالشرع[44].

انتصر عليّ الهاشمي في معركة الجمل الدمويّة التي بلغت كلفتها البشرية حوالي عشرة آلاف قتيل[45]، لكنّ الأمر لم يستتبّ لصالحه بعد أن أصرّ معاوية بن أبي سفيان الأموي على خلع الطاعة، وتمسّك بالقصاص لدم عثمان. ويذكر الطبري أنّه وضع فوق منبر الجامع الكبير بدمشق قميص عثمان الملطّخ بالدم يبكيه كلّ يوم ستّون ألف شيخ[46] من أجل تحويل مطلبه، ذي الأبعاد السياسيّة القبليّة، إلى مطلب أخلاقي ديني. واشتدّ

37 - هشام جعيط، الفتنة، ص144

38 - نصر ابن مزاحم المنقري، وقعة صفين، القاهرة، 1382هـ/1962م، ج2، ص118

39 - تمكن العودة إلى معاني مصطلح سلطة عند جميل صليبا، المعجم الفلسفي، بيروت- القاهرة، دار الكتاب اللبناني- دار الكتاب المصري، د.ت، ط1، ج1، ص670

40 - الطبري، تاريخ الرّسل والملوك،ج4، ص449

41 - هشام جعيط، الفتنة، ص170

42 - الطبري، تاريخ الرّسل والملوك، ج4، ص450

43 - م.ن، ص448

44 - البقرة: 1 (178-179).

45 - الطبري، تاريخ الرّسل والملوك، ج4، ص513

46 - م.ن، ص443

الصراع بين الهاشميين والأمويين إلى أن التقى الجمعان في واقعة صفّين. وقد انتهت بمجموعة من الأحداث المهمّة والخطيرة في تاريخ المسلمين، أهمّها خروج جماعة القراء على صفوف علي ومقتله وضعف الخط الهاشمي، ثم انتصار الأمويين وتحويلهم الخلافة إلى مُلك بعد أن تنازل عنها الحسن بن علي لصالح معاوية بن أبي سفيان. ومن أخطر النتائج تعمّق الانقسام القبلي، إذ «يكفي أن يكون سيّد القبيلة من أنصار معاوية لتكون القبيلة كلّها أمويّة الهوى، أو أن يكون في جانب علي (رض) حتى تكون عشيرته علويّة النزعة»[47].

لو تمّ تقييم هذه الأحداث السياسيّة والعسكرية بمعايير هذا العصر وبطريقة موضوعيّة لقيل إنّ انتقال الحكم من زعيم إلى آخر تم في شكل انقلابات سياسيّة وعسكريّة مسنودة بالعامل الاجتماعي (القبلي)، وإنّ ما حدث من اقتتال تحت الراية نفسها والهدف عينه والحجّة ذاتها هو حروب أهليّة، وإنّ الأعداد الكبيرة من القتلى في صفوف المسلمين هي شكل من أشكال الإبادة الجماعيّة في حقّ الأبرياء. ومع ذلك تصرّ الجماعتان السنيّة والشيعيّة على شرعنة ما حدث وتبريره من خلال مجموعة من المرويات والتأويلات البشرية المؤطّرة بسياقها التاريخي المركّب. وقد استمرّ التفكير في الأحداث من هذه الزاوية. ونجد أثره في تقييم التيجاني السماوي الشيعي التونسي المعاصر. وقال في أهل الشام من زاوية مذهبية بمناسبة سماح علي لمعسكر معاوية بورود الماء: «وهذه البادرة الكريمة تكفي وحدها أهل الشام لو كان عندهم شيء من الخلق الكريم أن يدركوا حقيقة كلّ من الرّجلين، وأنّهم بمناصرتهم لمعاوية إنّما يناصرون الشرّ على الخير والباطل على الحقّ والطّغيان على العفو والتّسامح والرّحمة»[48].

عبّر شفيق محمد الموسوي عن الرؤية الشيعيّة لهذه الفتنة بعبارات أوضح تربط السابق باللاحق، فقال: «عندما عادت الخلافة إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) بعد مقتل عثمان بن عفّان، وصارت له مقاليد الأمور وحكم الأمّة كلّها بالعدل والسويّة ورسم المنهج الإسلامي القرآني للحكم الإسلامي الصّالح، وساوى بين الفقير والغني وبين الحاكم والمحكوم، ولكنّ بعضا ممن آثروا حبّ الدنيا على الآخرة رفعوا السيف في وجه العدل الذي مثّله علي (ع) ممّا اضطرّه أن يخوض معهم حروباً، فكانت حربه في صفّين ضد معاوية الذي رفض البيعة لأمير المؤمنين علي (ع) واغتصب الحكم في بلاد الشّام جاعلاً من نفسه خليفة على أهلها، وكانت الحرب ضد طلحة والزبير ومعهما عائشة أم المؤمنين في موقعة الجمل، وكانت حرب النهروان ضدّ الخوارج»[49]. هكذا يربط الفكر الشيعي حلقة الفتنة بحلقة السقيفة وبهذا المعنى يقيّم الشيعة الحربين، وعليهما تبنى عقائدهم وتتشكّل أدبياتهم وطقوسهم[50].

47 - قصي برهان مصطفى الأطرقجي، الاتجاهات السياسيّة للقبائل العربيّة في الكوفة في القرن الأول الهجري، دمشق، ألنايا للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، 2008م، ص95

48 - محمد التيجاني السماوي، مؤتمر السقيفة نظرة جديدة في التاريخ الإسلامي، ص204

49 - شفيق محمد الموسوي، الطّريق إلى كربلاء، بيروت، المركز الثقافي الإسلامي، 1435هـ/2014م، ط1، ص7

50 - لمزيد الإحاطة بالرؤية الشيعيّة، تمكن العودة إلى، الشيخ المفيد، الجمل أو النصرة في حرب البصرة، بيروت، مؤسسة المفيد للنشر، 1403هـ/1983م، ط1

III- واقعة كربلاء

اختلّت موازين القوى لصالح الأمويين، وتمكّنوا من التخلّص من علي بن أبي طالب بما يحمله من رأس مال رمزي، ونجحوا في تحييد ابنه الحسن بأسلوب راوحوا فيه بين الترغيب والترهيب[51]. وتوّجت الجهود بإبرام اتفاق هدنة معه التزم فيه الطرفان بتولي معاوية بن أبي سفيان الحكم بعد علي، ثم تسليمه للحسن والحسين من بعده، وبالكفّ عن سبّ علي على المنابر، وأن يكون بيت مال المسلمين في الكوفة تحت إدارة الحسن بن علي. وتبيّن لاحقاً، أنّ هذا الصلح لم يكن إلّا مرحلة من مراحل تغيير مسار الحكم والنفوذ في الدولة الإسلاميّة من البيت الهاشمي إلى البيت الأموي بكلفة أقلّ من كلفة الحروب السّابقة. فما إن استتبّت الأمور وتوطّدت واقتربت ساعة الوفاء بالعهد، حتى تراجع معاوية عن وعده وعهده، وعيّن ابنه يزيد خليفة له بعد أن تخلّص من الخليفة المفترض من بعده الحسن بن علي بالأساليب المعتادة في تلك الفترة[52].

أقدم الخليفة الأموي على هذا القرار، رغم معرفته بسلوك ابنه وبصورته السلبيّة بين النّاس؛ فقد عُرف يزيد بشدّة تهالكه على ملذّات تصنّف إسلاميّاً ضمن المحرّمات التي تمنع صاحبها من حكم المسلمين حسب شروط الماوردي (ت. 450هـ/1058م). ووردت صورة يزيد السلبيّة على لسان ابن مرجانة أحد أعضاده ورَجُله الأوفى في واقعة الطف، إذ لمّا طلب منه ثانية السير إلى الحجاز لمحاربة عبد الله بن الزبير قال: «لا أجمعها للفاسق أبدا، أقتل ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأغزو البيت»[53]. ويذكر السيوطي في تاريخه أنّ يزيد رجل ينكح أمّهات الأولاد، والبنات، والأخوات، ويشرب الخمر ويدع الصّلاة[54].

بسبب هذه المعطيات وغيرها، فإنّ من بقي من العلويين ومن شاركهم إحساسهم بالمظلوميّة لم يستسلموا لإرادة معاوية ودائرته الضيّقة، وشقّوا عصا الطاعة بقيادة الحسين بن علي (ت. 61هـ/681م). وقد دفع هذا الموقف يزيد بن معاوية إلى كتابة رسالة لعامله على المدينة الوليد بن عتبة بن أبي سفيان أهمّ ما جاء فيها «أمّا بعد فخذ الحسين بن علي وعبد الرحمان بن أبي بكر وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر بن الخطاب أخذاً عنيفاً ليست فيه رخصة، فمن أبى عليك منهم فاضرب عنقه وابعث إليّ برأسه»[55]. تكشف هذه الرسالة الوجه الحقيقي لسياسة الأمويين مع مخالفيهم، هذا الوجه الذي تأرجح بين الترغيب والترهيب وعنوانها المال والسيف.

---

51 - شفيق محمد الموسوي، الطّريق إلى كربلاء، ص9

52 - م.ن، ص11

53 - م.ن، ج5، ص484

54 - السيوطي، تاريخ الخلفاء، تقديم عبد الله مسعود، حلب، دار القلم العربي، 1993م، ص249

55 - ابن أعثم الكوفي، مقتل الحسين وقيام المختار، انتشارات أنوار الهدى، قم، ط2، 1424هـ/2003م، ص16-17. وذكره الطبري في تاريخه، ج5، ص338

لم تثن هذه التهديدات الحسين وأتباعه على المواجهة من أجل استرجاع ما تمّ الاتفاق عليه مع معاوية بعد أن نقض العهد؛ فقاطع طقوس الحج على مرأى ومسمع من حجّاج البيت، وحمل أتباعه واتجه إلى العراق بعد أن استدعاه أهل الكوفة في عمليّة مكرّرة لموقفهم من والده في حربه ضدّ معاوية. وارتفعت وتيرة التخاصم الأموي الهاشمي حتى بلغت ذروتها في العاشر من محرّم من سنة (61هـ/681م)، حيث أجهزت عساكر يزيد على الحسين بن علي بطريقة دراماتيكيّة ألهبت جانباً من الضمير الإسلامي، وأحرجت جانبه الآخر وإن صمت حينها. وممّا ذكره الطبري حول أحداث هذه الواقعة قول أبي مخنف: «وُجد بالحسين عليه السلام لمّا قتل ثلاث وثلاثون طعنة وأربع وثلاثون ضربة [...] وسُلب الحسين ما كان عليه، فأخذ سراويله بحر بن كعب وأخذ قيس بن الأشعث قطيفته، وأخذ نعليه رجل من بني أود وأخذ سيفه رجل من بني نهشل [...] ومال النّاس على الورس والحلل والإبل وانتهبوها [...] ومال الناس على نساء الحسين وثَقَله ومتاعه، فأن كانت المرأة لتنازع ثوبها عن ظهرها حتّى تغلب عليه فيذهب به منها»[56]. كان المشهد دامياً وكان جسد الحسين ضحيّة قربانيّة وكان وقع مقتله حدثاً مأسوياً وتاريخيّاً مؤسّساً بالنسبة إلى الجماعة الإسلاميّة الكبرى عامّة والجماعة الشيعيّة خاصّة. ووصف هبة الله الشيرازي (ت. 470هـ/1077م) الحادثة قائلاً: «إنّ يوم عاشوراء هو اليوم الذي دارت فيه على أهل بيت نبيّكم المحن وجارت أيدي الزمن وهُتكت ستور الفروض والسنن»[57].

إذا كانت المصادر السنية تعاملت بهدوء مع واقعة كربلاء وبنبرة غير عالية من الاحتجاج، فإنّ المصادر الشيعيّة عدّت ما حدث الحلقة الأخطر ضمن الحلقات الثلاث في التآمر على الإسلام والمسلمين بعد السقيفة ومقتل علي. فبمقتل الحسين بن علي ضاع كلّ أمل في إعادة الأمور التي اختلّ ترتيبها يوم السقيفة إلى توازنها الأوّل؛ لأنّ الحسين، في المصادر الشيعيّة، لم يترك إلّا شابّاً مريضاً ليس بإمكانه مواصلة الثورة ضدّ الأمويين. واستندت الذّاكرة الشيعيّة إلى بعض المرويات عن الرسول وعن علي بن أبي طالب لإدانة واقعة الطف، وجعلها ضمن دائرة المقدّس الأسمى في الإسلام. ومن ذلك إخبار النبي محمد عنها وحياً من السّماء. ورُوي عن أمّ سلمة أنّ الرسول غاب عنها طويلاً ثمّ جاءها أشعث، وحين سألته أخبرها أنّه أسري به إلى موضع بالعراق يقال له كربلاء، ورأى فيه مصرع الحسين وآل بيته، وأنّه جمع تربة بدمائهم وسلّمها إياها وطلب أن تحتفظ بها إلى حين تحمرّ إيذاناً بمقتل ابنه الحسين. وأنّها انتظرت هذه اللحظة ووقعت فعلاً[58]. وروي عنها قولها إنّها «دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم والحسين في حجره وعيناه تهرقان بالدّموع، وفي يده تربة حمراء فقالت أمّ سلمة: ما هذه التربة يا رسول الله؟ فقال: أتاني جبريل فأخبرني أنّ

56 - الطبري، تاريخ الرّسل والملوك، ج5، ص453

57 - المؤيّد في الدين هبة الله الشيرازي، المجالس المؤيّدة، المائة الأولى، تحقيق وتقديم مصطفى غالب، بيروت، دار الأندلس، د.ت، ص39

58 - أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي، إعلام الورى بأعلام الهدى، تقديم محمد مهدي السيد حسن الخرسان، منشورات المكتبة الحيدريّة ومطبعتها في النجف، ط3، 1390هـ/1970م، ص219

أمّتي ستقتل ابني هذا، وأتاني بالتربة هذه. وفي حديث آخر، أنه يقتل بأرض العراق وهذه تربتها، وأودع تلك التربة عند أم سلمة زوجته وقال: إذا رأيتها وقد فاضت دما فاعلمي أن الحسين قتل»[59].

روى الشيخ المفيد في **الإرشاد** عن جماعة من صحابة علي قولهم: «لمّا توجّها مع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) إلى صفّين فبلغنا طفوف كربلاء، وقف عليه السلام ناحية من العسكر، ثم نظر يميناً وشمالاً ثم استعبر ثم قال: هذا والله مُناخُ ركابهم وموضع منيّتهم. فقيل له يا أمير المؤمنين ما هذا الموضع؟ فقال: هذا كربلاء يقتل فيها قوم يدخلون الجنّة بغير حساب»[60]. وأقحمت الذاكرة الشيعيّة الحسين بن علي في التأسيس لقداسة هذه الحركة التاريخيّة فروت عنه قوله: «إني ما خرجت أشراً، ولا بطراً، ولا مفسداً، ولا ظالماً، وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي، أريد أن آمر بالمعروف، وأنهى عن المنكر، وأسير بسيرة جدي. وأبي علي بن أبي طالب»[61].

لم يكن حال العلويين وشيعتهم أفضل بعد سقوط الأمويين وصعود العباسيين بعد أن وظّفوا صورتهم ورصيدهم ومظلوميتهم في الإطاحة بخصومهم. وقال عبد الجواد الكليدار في هذا السياق: «لمّا توطّد الملك والسلطان للعباسيين، وتمكّنوا من التغلب على الثورات الداخليّة والقضاء نهائياً على خصومهم الأمويين، صاروا يجاهرون شيئاً فشيئا بمعاداة آل أبي طالب وشيعتهم معاداة مستورة وخفيفة الوطأة على عهد السفاح، ثمّ استفحلت بصورة علنيّة أيام المنصور الدوانيقي [...] وعلى عهد الرشيد الذي طارد العلويين [...] وأمر بهدم كربلاء وكرب قبر الحسين، وقطع السدرة التي كانت نابتة عند القبر سنة 193هـ/809م»[62].

ففي المرحلتين الأمويّة والعباسيّة تكرّست حالة الصّراع بين الأقليّة الشيعة والأغلبيّة السنّة، باعتبار أنّ الحكم العبّاسي استقرّ بدوره سنيّاً في نهاية المطاف، ووقف حكّامه بحزم في وجه الظّهور الشيعي وتمدّده. ومن هذه الزاوية الخلافيّة تحديداً تمّ تمثّل واقعة كربلاء بأبعادها السياسيّة والتاريخيّة والفكريّة والروحيّة بين الجماعتين السنيّة والشيعيّة. وإذا أردنا التدقيق في طرفي الصّراع، فإنّه من اليسير القول إنّ الصراع دار أساساً بين أقلّيتيْن متفاوتتيْ القوّة؛ هما السلطتان الأموية والعباسيّة وحاشيتهما من جهة ومفكّري الشيعة من جهة ثانيّة؛ لأنّ السّواد الأعظم من المحسوبين على الجماعة السنيّة لا دور له في إشعال هذا الصّراع أو الاستفادة منه، باعتبار أنّ حظّهم من الأنظمة التي تحكم باسمهم لم يكن أفضل من حظّ الشيعة. وعادة ما يكون خطاب المظلوميّة طريفاً سوسيولوجيّاً؛ لأنّه يبيّن مطّاطيّة دلالة الأحداث والنصوص إذا امتلأت كلماته بهموم القلّة المهمّشة ومعاناتها. وقد حذّر المنصف بن عبد الجليل في هذا السياق، من دور الذاكرة الجمعيّة

59 - المجلس يالمجلسي، بحار الأنوار، ج98، كتاب المزار، باب تربته، ص133

60 - الشيخ المفيد، الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، بيروت، مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، 1416هـ/1996م، ط1، ج1، ص332

61 - أبو المؤيّد الموفّق بن أحمد المكي أخطب خوارزم (الخوارزمي)، مقتل الحسين، تحقيق الشيخ محمد السماوي، قم، تصحيح دار أنوار الهدى، انتشارات أنوار الهدى، ط4، 1428هـ/2007م، ج1، ص188

62 - عبد الجواد الكليدار، تاريخ كربلاء وحائر الحسين عليه السلام، النجف، منشورات الشريف الرضي، المكتبة الحيدريّة، 1386هـ-1418هـ، ص ص160-161

والمتخيّل الجمعي في تحويل المقالة أو المذهب من إطاره الفرقي المحدود إلى سلطة أنفذ تتولّى الدفاع عن الإسلام[63]. وهذا هو حال الجماعات الإسلاميّة المتصارعة منذ نشأتها.

المدخل المفاهيمي

I- من هم الشيعة؟

الشيعة في اللّغة هم الأنصار والأتباع، وقد تشكّلت معالم المفهوم الأولى مع حركة التوّابين[64] واستقرّ نهائيّاً في المصادر القديمة وفي البحوث المتعلّقة بالفكر العربي الإسلامي، ليدلّ على أنصار علي بن أبي طالب وأبنائه من بعده من المطالبين بأحقيّة العلويين في قيادة المسلمين بعد الرّسول، والمعتقدين في إمامتهم الإلهيّة[65]. وينبني التشيّع أساساً على مفهوم الإمام المعصوم من أبناء علي بن أبي طالب وفاطمة الزهراء أو من أبناء علي فقط مثل محمد بن الحنفيّة. ولا تجري الإمامة في الأخوين بعد الحسن والحسين. وعرفت الجماعة الشيعيّة تفرّعات بعد الإمام الرابع علي بن الحسين (ت. 95هـ/714م)، وكان الخروج الأوّل من قبل زيد بن علي (ت. 122هـ/740م) رافضاً الوصيّة لأخيه محمد الباقر (ت. 114هـ/732م) بالإمامة من بعد أبيه زين العابدين.

لا نستبعد أن تكون الوصيّة لأخيه قد دفعته إلى صياغة نظرية موازية في الإمامة والسياسة تقوم على فكرة وجوب الخروج على الحاكم الظالم، والموت من أجل تحقيق هذا الهدف إذا لزم الأمر[66]. واشترط زيد الخروج العلني على الظلم والفساد لاكتساب صفة الإمام. وبناء على هذا المبدإ أنكر إمامة أخيه الباقر، باعتباره لم يعلن الثورة ولازم مجالس العلم والدعوة المستترة. والتزاماً بما أقرّه، خرج زيد سنة مقتله ضد الأمويين في خلافة هشام بن عبد الملك (ت. 125هـ/743م). ويُذكر أنّ أهل الكوفة شجّعوه على الخروج ثم تخلّوا عنه، عندما علموا أنّه لا يُنكر خلافة أبي بكر وعمر ولا يلعنهما. فخاض المعركة ضدّ الأمويين في عدد قليل من المقاتلين فأصيب بسهم ومات[67].

---

63 - المنصف بن عبد الجليل: » المنهج الأنثروبولوجي في دراسة مصادر الفكر الإسلامي«، ضمن في قراءة النص الديني، تونس، الدار التونسيّة للنشر، 1990م، ط2، ص ص46-47

64 - تكوّنت هذه الحركة بقيادة سلمان بن صرد سنة 65هـ/ في الكوفة. وجمع بين أفرادها الشعور بالندم على خذلان الحسين بن علي في كربلاء. وذكر الطبري أنّ ابن صرد وقف أمام قبر الحسين صارخا «يا ربّ إنّا خذلنا ابن بنت نبيّنا، فاغفر لنا ما مضى منّا وتب علينا إنّك أنت التوّاب الرّحيم، وارحم حسينا وأصحابه الشهداء الصدّيقين، وإنّا نشهدك يا ربّ أنّا على مثل ما قُتلوا عليه، فإن لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ»: الطبري، تاريخ الرّسل والملوك، ص589

65 - عبد الكريم الشهرستاني، الملل والنحل، تحقيق محمد سيد كيلاني، دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت، ط2، 1395هـ/1975م، ج1، ص144 الحسن بن موسى النوبختي وسعد بن عبد الله القمّي، فرق الشيعة، تحقيق عبد المنعم الحفني، القاهرة، دار الرشاد، 1412هـ/1992م، ط1، ص14 سعد بن عبد الله أبي خلف الأشعري القمّي، المقالات والفرق، تحقيق محمد جواد مشكور، طهران، مؤسسة مطبوعات عطائي، 1361هـ، ص4

66 - الشهرستاني، الملل والنحل، ص154 ينظر أيضاً، أحمد أمين، ضحى الإسلام، القاهرة، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، 2012م، ص846

67 - يحي بن حمزة، المعالم الدينيّة في العقائد الإلهيّة، تحقيق سيد مختار محمد أحمد حشاد، دار الفكر العربي المعاصر بيروت، د.ت، ص85

حدث الخروج الثاني زمن خلافة الإمام السادس جعفر الصادق (148هـ/765م)، وكان قد أوصى في حياته بالإمامة لابنه الأكبر إسماعيل إلا أنّه مات قبله سنة 133هـ/755م. ولكنّ أتباعه تمسّكوا بإمامته رغم موته، وتسمّوا بالإسماعيليّة والسبعيّة نسبة إلى الإمام السّابع، وقالوا بانتقال الإمامة من بعده إلى ابنه محمد المكتوم (ت. 169هـ/786م)، وهو أوّل الأئمة المستورين عندهم. وينتهي الاستتار بخروج أول أئمّة الظهور عبيد الله المهدي (ت. 322هـ/934م)[68]. وفي المقابل ساقت الاثنا عشريّة الإمامة إلى أخيه موسى بن جعفر (الكاظم) (ت. 183هـ/ 799م) ثم في ذريته[69].

تحصر الاثنا عشريّة الإمامة في أبناء الحُسَين دون غيرهم لأسباب لم تقنع الفرع الزيدي مثلاً. ويوجد شبه إجماع بين الشيعة الإماميّة على أنّ أصول الإيمان أربعة: **التوحيد والعدل والنبوّة والإمامة**، ويضيف إليها حيدر الآملي مثلاً المعاد الذي قالت به المعتزلة[70]. ويهمنا في هذا السّياق، أن نقف عند مفهوم مؤرّخ البلاط الحسيني أحمد بن أبي الضّياف (ت. 1291هـ/1874م) للشيعة، وسنستند إلى تاريخه في تحديد معالم التشيّع الحديث في تونس مع الفصل الثالث. وجاء في تعريفه للتشيع التونسي الإفريقي: «معنى الشيعة لغةً وعرفاً- حبّ أهل إفريقيّة لآل البيت المطهّر... ولا يظنّ في القوم أنّهم من الغلاة المدحوض غُلُوُّهم عند أيمّة الشيعة، كما لا يُظنّ بهم أنّهم ممن يكفّر الصحابة رضي الله عنهم، وقُصارى أمرهم تفضيل علي على الشّيخين، مع اعتقاد صحّة إمامتهما لصحّتها عند جدّهم سيّدنا علي»[71].

يحوز هذا التعريف على قدر من الدقّة بناءً على عدّة ملاحظات، منها تجذّر صورة علي في متخيّل التونسيين وفي ذاكرتهم الثقافيّة[72]، ومحبّتهم لمن سبقه من الصحابة وتبجيلهم أيضاً. ومن آثار التشيّع في الذهنية التونسية ظاهرة زيارة الأولياء الصالحين وكثرة الفرق والزوايا الصوفيّة[73]. ونقل صاحب الإتحاف عن المتصوّف التونسي أبي الحسن الشاذلي قوله لأصحابه: «إذا اشتدّ عليكم كرب فقولوا: يا محمد يا

68 - تشكلت أسس المذهب الإسماعيلي في مرحلة الأئمّة الثلاثة المستورين وهم محمد بن إسماعيل وابنه عبد الله (ت. 212هـ/815م) وأحمد بن عبد الله (ت. 265هـ/878م). وقد ساعدهم مجموعة من المتشبّعين بالفكر الفلسفي وأبرزهم ميمون القدّاح (ت. 198هـ/815م) ولاحقاً عبد الله بن ميمون (ت. 270هـ/883م). يُنظر: شهاب الدّين النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق محمد محمد أمين ومحمد حلمي محمد أحمد، القاهرة، الهيئة المصريّة العامة للكتاب، 1412هـ/1992م، ج28، ص64

69 - الأئمّة الاثنا عشر بالترتيب هم: علي بن أبي طالب (ت. 40هـ/660م)، الحسن بن علي (ت. 50هـ/670م)، الحسين بن علي (61هـ/679م)، علي بن الحسين (ت. 95هـ/714م)، محمد بن علي بن الحسين (الباقر) (ت. 114هـ/732م)، جعفر الصادق (148هـ/765م)، موسى الكاظم (ت. 183هـ/ 799م) علي بن موسى (الرضا) (ت. 203هـ/818م)، محمد بن علي (الجواد) (ت. 220هـ/835م)، علي بن محمد (الهادي) (ت. 254هـ/868م)، الحسن بن علي (العسكري) (ت. 260هـ/874م) محمد بن الحسن (المهدي).

70 - إبراهيم الموسوي الزنجاني: عقائد الإماميّة، قم، منشورات الإمام المهدي، 1363هـ/1944م، مج1، ص72

71 - أحمد بن أبي الضياف، إتحاف أهل الزّمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، تحقيق رياض المرزوقي، تونس، الدار التونسيّة للنشر، 1989م، ج1، ص154

72 - يُنظر في هذا السياق: - Mohamed Jouili: Le Héros dans L'Islam populaire A travers la Culture orale tunisienne, l'Exemple de Ali b.Abi Talib, approche anthropologique, Tunis, 2007

73 - يمكن العودة في هذه المسألة إلى: - Taoufik Bachrouch: Le Saint et le Prince en Tunisie, Tunis, Fac. Des Science Humaine et Social de Tunis, 1989, pp 193 et 211 وينظر أيضاً: كمال مصطفى الشيبي، الصّلة بين التصوّف والتشيّع، بيروت، دار الأندلس للطباعة والنشر، 1982م، ط3، ج1، ص495 وينظر أيضاً: حسن محمد العمري، الولاية والكرامة في العقيدة الإسلاميّة، عمان- الأردن، 1999م، ص87-95

علي»[74]، وهي تعبيرة واضحة وتتردّد في الثقافة اليوميّة في حياة التونسيين، ولكنّها لا تعني بالضّرورة أنّ التونسيين يتبنّون التشيّع بأطروحاته المشرقيّة.

II- يوم الغدير أو يوم الوصيّة

يرتبط مفهوم الوصيّة لعلي بن أبي طالب بالخلافة والإمامة في الأدبيات الشيعيّة بخطبة الرّسول في غدير خم[75]. وجرت هذه الخطبة عند العودة من حجّة الوداع في اليوم الثامن عشر من ذي الحجّة من السنة العاشرة الهجريّة. وتروي عديد المصادر عن الرسول أمره بصيغ متنوّعة بتكليف صهره وابن عمّه بالخلافة، ومنها قوله في خطبته الأخيرة: «إنّي قد دُعيت ويوشك أن أجيب، وقد حان منّي خفوف من بين أظهركم، وإنّي مخلف فيكم ما إن تمسّكتم به لن تضلّوا بعدي أبداً: كتاب الله وعترتي أهل بيتي، وإنّهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض، ثمّ نادى بأعلى صوته: ألست أولى بكم منكم بأنفسكم؟ فقالوا: اللهم بلى. فقال لهم على النّسق وقد أخذ بضلعيْ أمير المؤمنين حتّى رُئِيَ بياض إبطيهما وقال: من كنت مولاه فهذا عليّ مولاه، اللهم والِ من والاه، وعادِ من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله»[76].

روى المفيد في **أماليه** خبراً آخر تؤكّد ألفاظه مكانة عليّ بين السّماء والأرض في التمثّل الشيعي ونصّه: «أيّها الناس: أنا البشير، وأنا النذير، وأنا النبي الأمي، إنّي مبلغكم عن الله تعالى في أمر رجل لحمه من لحمي، ودمه من دمي، وهو عتبة العلم، وهو الذي انتجبه الله من هذه الأمة واصطفاه وتولّاه وهداه، وخلقني وإياه من طينة واحدة، ففضلني بالرسالة، وفضله بالتبليغ عنّي. وجعلني مدينة العلم وجعله الباب، وجعله خازن العلم، والمقتبس منه الأحكام، **وخصه بالوصيّة**، وأبان أمره، وخوّف من عداوته، وأوجب موالاته، وأمر جميع الناس بطاعته»[77].

يدخل الإمام عليّ بهذا الخبر في دائرة المقدّس المطلق، ويتماهى مع الرسول في انتظار أنّ يحلّ محلّه في المتخيل الثقافي الشيعي. وتؤكّد المصادر الشيعيّة أنّ الآية السابعة والستّين من سورة المائدة {يا أَيُّها الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ} هي الآية قبل الأخيرة من القرآن، ونزلت قبل خطبة حجّة الوداع بعد أن ضاق صدر الرّسول بالجهر بتكليف علي بالخلافة خشية الفتنة بين المسلمين[78]؛ ومعنى ذلك أنّ هذا التكليف لم يكن مجرّد رأي أو ترشيح يستند إلى مجموعة من الشروط الموضوعيّة تداولها المسلمون يوم السقيفة وقنّنها الفقهاء لاحقاً، بل هو أمر إلهي نزل به جبريل وحياً من السّماء. ولمّا أتمّ صاحب الرّسالة خطبته وكشف رسالته وأمر النّاس

74 - أحمد بن أبي الضياف، إتحاف أهل الزّمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، ج1، ص154

75 - موضع في طريق الحجّ.

76 - الشيخ المفيد، الإرشاد، ج1، ص176

77 - الشيخ المفيد، الأمالي، تحقيق علي أكبر غفاري وجماعة المدرسين بقم، بيروت، دار المفيد للطباعة والنشر، 1414هـ/1993م، ص58

78 - م.ن، ص78

أنّ يبلّغ الحاضر الغائب، نزلت الآية الثالثة من نفس السورة {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً}[79].

عدّ أحمد الأميني النجفي حديث الغدير نبأً عظيماً وحديث الدعوة الإلهيّة والولاية الكبرى، وحديث إكمال الدّين وإتمام النعمة ورضى الربّ[80]. وتحوّل تمثّل هذا اليوم إلى مقوله فكريّة في الأدبيات الشيعيّة تستند إليها في الجدل الفكري والمذهبي مع أدبيات الفكر السنّي. وبمرور الوقت أصبح يوم الغدير عيداً عند الشيعة ترتبط به مجموعة من الطقوس الفولكلوريّة والتعبّديّة. ومن هذه الزاوية، عدّ علي الميلاني «يوم الغدير يوم صيام وصلاة ودعاء وعبادة والأخبار في ذلك كثيرة... ومنها قول أبي عبد الله: ‹صيام يوم غدير خم يعدل صيام [عمر] الدّنيا...ثم ذكر صلاة يوم الغدير وثوابها»[81]. وكان معزّ الدولة البويهي أوّل من حوّل يوم الغدير إلى مناسبة طقسيّة يحتفل الشيعة بذكراها سنوياً. وأكّد المقريزي «أنّ عيد الغدير لم يكن عيداً مشروعاً، ولا عمله أحد من سالف الأمّة المقتدى بهم، وأوّل ما عرف في العراق أيام معزّ الدولة علي بن بويه. فإنّه أحدثه في سنة اثنتين وخمسين وثلاثمائة. فاتخذه الشيعة من حينئذ عيداً»[82].

لئن ورد ذكر حديث الغدير في المصادر السنيّة[83]، فإنّ الموقف الرسمي يرفض التأويل الشيعي ويتمسّك بالترتيب التاريخي للخلفاء؛ لأنّ القبول بالرؤية الشيعيّة من شأنه أن يدعم وجهة نظر هذه الجماعة، ويقلب المعادلة التاريخيّة التي فرضها الواقع. ويلعب الاحتفال بعيد الغدير[84] دوراً مهمّاً في صناعة الذاكرة الجمعيّة الشيعيّة والمحافظة عليها في ظل التضييق الذي عاشته الجماعة في الماضي والحاضر.

III- الإمامة الإلهية

صدق عبد الكريم الشهرستاني حين قال: «ما سُلّ سيف في الإسلام على قاعدة دينيّة مثلما سُلّ على الإمامة في كلّ زمان»[85]. وانطلاقاً من التمثّل الشيعي ليوم الغدير، تأسّس مفهوم إمامة العلويين الإلهيّة، باعتبار أنّ أمرها في أدبياته نزل وحياً من السّماء على الرسول فبلّغه. وهذا يعني التشكيك في غيرها من أشكال تولّي الحكم عند المسلمين، وتحديداً الشورى التي قال بها الفكر السنّي لتبرير ترتيب الخلفاء الأربعة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي. ففي حين يعدّ الفكر السنّي مرحلة النبوّة الكشف الأخير عن القانون الدّيني،

79 - علي الحسيني الميلاني، مقالتان في الغدير، قم، مركز الحقائق الإسلاميّة، 1410هـ/1989م، ط1، ص15 الشيخ المفيد، الإرشاد، ج1، ص154

80 - أحمد الأميني النجفي، الغدير في الكتاب والسنّة والأدب، بيروت، مؤسسة الأعلمي، 1414هـ/1994م، ط1، ص18

81 - علي الحسيني الميلاني، مقالتان في الغدير، ص42

82 - المقريزي، المواعظ والاعتبار بالخطط والآثار(المعروف بالخطط المقريزيّة)، تحقيق محمد سيدهم وزينة الشرقاوي، راجعه أحمد أحمد زيادة، القاهرة، مكتبة مدبولي، 1998م، ج2، ص116

83 - أحصى أحمد الأميني النجفي قائمة الروّاة السنّة لحديث الغدير ضمن: الغدير في الكتاب والسنّة والأدب، ص35 وما بعدها.

84 - م.ن، ص33

85 - محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، الملل والنحل، ج1، ص13

وأنّ النبي محمد هو خاتم النبوّة والأنبياء، وأنّ الإمامة مسألة تاريخيّة وفقهيّة سلطانيّة، يصرّ الشيعة على أنّ التاريخ الدّيني للإنسانيّة لم يُغلق رغم ختم النبوّة، بل يتواصل بحلقة جديدة هي الإمامة الإلهيّة القائمة على الاصطفاء والتكليف في البيت العلوي.

فدورة الولاية فُتحت عند ختم دورة النبوّة، ومثلما أنّ خاتم النبوّة العالميّة ظهر في شخص النبي محمد، فإنّ خاتم الولاية العالميّة تجلّى في شخص الإمام علي، ويتجلّى ختم الولاية المحمّديّة في ظهور الإمام الثاني عشر[86]. وأصبحت الإمامة بهذا المعنى، مسألة عقديّة في الأدبيات الشيعيّة، يجب أن يؤمن بها كلّ مسلم وإلّا خرج من دائرة الإسلام، رغم تنسيب بعض الشيعة المعاصرين مثل حيدر حبّ الله. ولئن كانت المصادر الشيعيّة القديمة تقول بكفر من أنكر الإمامة صراحة مثل الشيخ المفيد الذي قال في هذا المعنى: «اتفقت الإماميّة على أنّ من أنكر إمامة أحد الأئمّة وجحد ما أوجبه الله تعالى من فرض الطاعة، فهو كافر ضالّ مستحقّ للخلود في النار»[87]، فإنّ عدداً من الشيعة المعاصرين يخالفونهم الرأي، ويعتبرون منكر الإمامة على ظاهر الإسلام يجوز له ما يجوز لسائر الشيعة من توارث وتناكح وتواصل ومثل سائر المسلمين ما لم يعلن عداءه الصّريح لآل البيت[88].

فالإمامة عند الشيعة مسألة ضروريّة لا اختياريّة وعهد كالنبوّة بيد الله يختار لها من يشاء من عباده. فالنبي محمد هو خاتم الأنبياء ولأجل حفظ الدعوة من بعده من كل انحراف وتشويه وتزوير، اختار الأئمّة الأوصياء. والإمام عندهم غير النبي، ولكنّه يتمّم دوره بالإرشاد وهداية الأتباع إلى المعنى الرّوحي الخفي للوحي المعلن من الرّسول. فالغاية من الإمامة حسب حيدر حب الله «ليست سدّ نقص وقع فيه الرّسول، معاذ الله فقد بلّغ صلى الله عليه وسلم أحسن تبليغ، وإنّما الهدف منها هو تقديم التفسير الأكمل والأصوب للكتاب والسنّة بأفضل الطّرق وأضمنها، وإدارة شؤون المسلمين بأحسن الوسائل والأساليب الشرعيّة، وصيانة الدّين وعقائده ومفاهيمه وتكاليفه الإلهيّة»[89].

يستند الشيعة في هذا التمثّل إلى عدد من المرويات عن الرسول الواردة في المصادر السنيّة أيضاً. ومنها حديث الدّار «أنت أخي ووصيّي ووزيري ووارثي وخليفتي من بعدي»[90]، وحديث المنزلة «أما ترضى أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى»[91]، وحديث السفينة «إنّما مثلي ومثل أهل بيتي كسفينة نوح، من

86 - هنري كوربان، الشيعة الاثنا عشريّة، ترجمة ذوقان قرقوط، القاهرة، مكتبة مدبولي، 1414هـ/1993م، ط2، ص58

87 - الشيخ المفيد، أوائل المقالات، تحقيق الشيخ إبراهيم الأنصاري، نشر المؤتمر العالمي لألفيّة الشيخ المفيد، 1413هـ/1992م، ط1، ص44

88 - حيدر حب الله، رسالة سلام مذهبي، بيروت، دار الهادي، 1436هـ/2015م، ص46 يُنظر أيضاً محمد حسين آل كاشف الغطاء، أصل الشيعة وأصولها، مقارنة مع المذاهب الأربعة، بيروت، دار الأضواء، 1410هـ/1990م، ط1، ص ص134-135

89 - م.ن، ص ص46-47

90 - السيرة الحلبيّة، ج1، ص ص460-461

91 - صحيح البخاري، ج4، ص208

ركبها نجا ومن تخلّف عنها غرق»[92] وحديث الاثني عشر «يكون بعدي اثنا عشر خليفة كلّهم من قريش»[93] غيرها من المرويات. يقول حيدر حب الله «من هنا يرى الإماميّة أنّ طاعة الله ورسوله يستدعيان طاعة الإمام المعيّن منهما للخلافة»[94].

شكّك محمد باقر الصّدر في مسألة الشورى التي قالت بها المرجعيات السنيّة معتبراً أنّه من البديهي أن يعمل الرّسول على ممارسة التوعية بهذا الأسلوب في انتقال الحكم بعده لو كان يعلم أنّه الآليّة الأمثل للمسلمين. ولو جرى التداول فيها، حسب الصدر، لانعكس أثرها في الأحاديث المأثورة عنه، وخاصّة لدى الجيل الطليعي من المهاجرين والأنصار، باعتبارهم معاصرين للمرحلة النبويّة ومطّلعين على تفاصيلها. واستشهد الصّدر بوصيّة أبي بكر لعمر بالخلافة حين أحسّ باقتراب أجله[95]. وقال في هذا السّياق: «نلاحظ بهذا الصّدد للتأكّد من أنّ أبا بكر حينما اشتدّت به العلّة عهد إلى عمر بن الخطّاب فأمر عثمان أن يكتب عهده. وكتب: بسم الله الرحمان الرّحيم هذا ما عهد أبو بكر خليفة رسول الله إلى المؤمنين والمسلمين، سلام عليكم فإني أحمد إليكم الله، أمّا بعد فإنّي استعملت عليكم عمر بن الخطّاب فاسمعوا وأطيعوا»[96].

استنتج الصّدر من هذا التكليف أنّ الخليفة لم يكن يفكّر بعقليّة نظام الشورى الذي يصرّ الفكر السنّي على مشروعيته في اختيار الحاكم بعد الرّسول. ومثله فعل عمر بن الخطّاب حين حصر اختيار الخليفة من بعده في ستّة أشخاص دون غيرهم وكان له ما أراد. واعتبر أنّ ما قام به أبو بكر هو المنطق الذي كان يجب أن يستند إليه المسلمون يوم السقيفة، لكنّهم رفضوا بقيادة عمر بن الخطّاب الوصيّة التي أراد الرّسول كتابتها بخط يده فيما أخبر به ابن عبّاس في حديث رزيّة الخميس، ولكنّهم عادوا ليقبلوا به من الخليفتين الأوّل والثاني.

من هذا المنطلق، يعدُّ الشيعة أنّ المرويات عن الرّسول، والتي تؤكّد مكانة عليّ الأدبيّة والروحيّة والماديّة، هي الدّليل على عزم النبي إعلان تكليفه بالخلافة لو لا معارضة جزء منهم لكتابة الوصيّة بإمامته. والإمامة في التمثّل الشيعي هي تطوّر تاريخي لمفهوم النبوّة فيما نعتقد؛ فباعتبار أنّه لا نبي بعد محمد، فإنّ الإمام في تقديرهم هو حلقة الوصل المنطقيّة والشرعيّة للمحافظة على مضامين الرّسالة وأهدافها في غيابه. ومن هذه الزاوية وتأكيداً لهذا الربط، قالت الشيعة بعصمة الأئمّة من كلّ ذنب ومعصية، وتمسّكت بأنّها استمرار لعصمة الأنبياء اعتباراً لقيمة المسؤوليّة المناطة بعهدتهم، وليس فقط لأنّهم أبناء علي وفاطمة

92 - أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، بيروت، دار الكتاب العربي، د.ت، ج12، ص90

93 - مسند أحمد، ج5، ص92

94 - حيدر حب الله: رسالة سلام مذهبي، ص49 ينظر أيضاً: لطف الله صافي غولبياغاني، منتخب الآثار في الإمام الثاني عشر، مجموعة ترجمات متعلقة بالإمام الثاني عشر، طهران، 1954م، ص58-61

95 - ينظر في هذه الوصيّة: أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، القاهرة، مطبعة دار الكتب المصريّة، 1353هـ/1935م، ط2، ج1، ص264

96 - ورد كلام محمد باقر الصدر ضمن مقدّمة، تاريخ الإماميّة وأسلافهم من الشيعة منذ نشأة التشيّع حتى القرن الرابع الهجري، ص10. (م.س).

الزهراء. فالحسن والحسين من أصحاب الكساء ومطهّران من الله بنص الآية {إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً} [الأحزاب: 33]. وفي المقابل، يرفض الفكر السنّي مسألة العصمة والتكليف الإلهي والوراثة الرّوحيّة، ويصنّف الأئمّة من الحسن إلى جعفر الصّادق ضمن التابعين؛ أي ضمن الصف الثاني من المسلمين الأوائل ولا يهتم بالبقيّة.

تختلف الإماميّة في مسألتين مهمتين تتعلّقان بالإمام وهما علم الغيب والولاية التكوينيّة. ويذهب شقّ منهم إلى أنّ الأئمّة الاثني عشر يعلمون الغيب بإرادة الله. وهو موقف الأغلبيّة. ولهذا الامتياز الإلهي القائم على الاصطفاء يعلم الإمام ما في نفوس الخلق وأعمالهم وبما كان وبما هو كائن وبما يكون، ويعلم كلّ العلوم واللغات شأنه شأن الأنبياء. ويعارض شق آخر هذا التمثّل ويعتبر أنّ ما يمنح له من علم غيب لا يمكن أن يصل إلى هذا الحدّ، وإنّما هو محدود ببعض المسائل[97].

يعرّف حيدر الآملي الولاية التكوينيّة، فيقول: «إنّ الولاية هي باطن النبوّة، التي ظاهرها التصرّف في الخلق بإجراء الأحكام الشرعيّة عليهم، وباطنها الإنباء والإرشاد لهم بإخبار الحقائق الإلهيّة والمعارف الربانيّة كشفاً وشهوداً. فالنبي له التصرّف في الخلق بحسب الظاهر والشريعة، والولي له التصرّف فيهم بحسب الباطن والحقيقة»[98]. واستناداً إلى تعريف الآملي يتمتّع الإمام في هذا التمثّل بمجموعة من الكرامات والخوارق بسبب قوّة روحه ونفسه إلى حدّ بلوغ الكمال الوجودي الذي يلي مرتبة النبي. ولكنّ شقّاً من الإماميّة يرفض الولاية التكوينيّة بهذه القدرات، ولا يعتقد في قدرة الإمام على إدارة العالم ومحاسبة الخلق وإجراء المعاجز[99].

IV- المهدوية

المعنى البسيط للمهدوية عند الشيعة الاثني عشريّة هو ظهور الإمام الثاني عشر محمد بن الحسن العسكري في آخر الأزمنة بعد غيبتين، ليقيم الدولة العادلة مع شيعته. وذكر الطبري الإمامي أنّ المهدي وُلد ليلة جمعة لثمان خلون من شعبان، سنة سبع وخمسين ومائتين من الهجرة، وأنّه نشأ مع أبيه في مدينة سُرّ من رأى (سامرّاء) بالعراق ثلاث سنين، وأقام بها بعد وفاته إحدى عشرة سنة ثم كانت الغيبة[100]. ويعتقد الشيعة في وجود غيبتين للإمام الثاني عشر غيبة صغرى عقبت مولده بسبب الخوف من العباسيين المترصّدين لجنس الذكور من أبناء الأئمّة. وتؤكّد المصادر الشيعيّة أنّ الإمام المهدي كان يتواصل في هذه المرحلة التي امتدّت بين 260 و329هـ/874- 941م مع شيعته بواسطة الوكلاء الأربعة، وهم عثمان بن سعيد

97 - حيدر حب الله، رسالة سلام مذهبي، ص54-56

98 - حيدر الآملي، نصّ النصوص في شرح الفصوص (المقدّمات)، تحقيق هنري كوربان وعثمان يحي، طهران، 1988م، ط2، ص168

99 - حيدر حب الله، رسالة سلام مذهبي، ص56

100 - الطبري (الإمامي)، دلائل الإمامة، ص ص266-267

العمري (ت. 267هـ/880م) وابنه محمد بن عثمان (ت. 304هـ/916م) والحسين بن روح النوبختي (ت. 326هـ/937م) وعلي بن محمد السمري (329هـ/941م)، ولا يعرف مكانه سواهم. ويحملون منه إلى الشيعة الأجوبة عن أسئلتهم ومشاغلهم وينقلون إليهم أوامره[101]. وهذا مدخل لنقد أطروحات المذهب في التاريخ.

أمّا الغيبة الكبرى سنة 329هـ/941م مستمرّة إلى الزمن الحاضر ومعها تستمر حياة المهدي دون انقطاع[102]. ومعها انقطعت النيابة الخاصّة والبابيّة، وصارت النيابة عامّة للفقهاء العدول. ولم يعد الإمام يحتاج إلى نواب أو وكلاء؛ لأنّه يتواصل مع شيعته مباشرة. وكثرت الرّوايات حول رؤيته والاستنجاد به في قضاء الحوائج[103]. وذكر لنا أحد التونسيين الشيعة المعروفين ممن حاورتهم في هذا البحث أنه تواصل مع الإمام المهدي أكثر من مرّة في المنام أو بين النوم واليقظة، وأنّه تلقّى منه النصح والتوجيه في أكثر من مسألة وساعده في أكثر من حاجة. وحينما يتحدّث الشيعي عن مثل هذه الحوادث الرّوحيّة، فإنّه يعتقد أنّها حوادث واقعيّة تاريخيّة مدعّمة لعقيدته. ويجدر التذكير أنّ مقولة «النيابة العامة» طرحت في الفكر الشيعي لمّا طالت الغيبة[104]. وتمّ تأويلها بطرائق مختلفة من بينها نيابة الفقيه التي تولّدت عنها نظرية «ولاية الفقيه»[105]. وتمثّل مقولة الغيبة وجه الخلاف الأساسي مع الجماعة السنيّة التي توافق الشيعة في ظهور المهدي في آخر الأزمنة، ليملأ الدنيا عدلاً بعد أن ملئت جوراً، وفي أنّ اسمه محمّد وأنّه من نسل النبي، ولكنّها ترفض فرضيّة مولده وحياته قرونا من الزمن متخفيّا ليظهر ثم يموت. وتعتقد أنّ المهدي الحقيقي يولد ولادة طبيعيّة تزامن مرحلة ظهوره[106].

نوجز الرّوايات الشيعيّة حول مولد الإمام المهدي في أنّ والده الحسن العسكري طلب من أخت جدّه (العمّة) حكيمة أن تحضر إلى بيته وتقضّي الليلة عنده؛ لأنّه سيرزق فيها مولوداً يكون خليفته، فاستغربت العمّة كيف يولد له ولد وليس من بين نسائه من هي حامل، فقال لها إنّ نرجس التي عتقها هي أمّ المولود ولن

101 - أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي، كتاب الغيبة، تبريز- إيران، 1322هـ.ش/1904م، ص82 يُنظر كذلك الشيخ المفيد، المسائل العشر في الغيبة، تحقيق فارس حسون، قم- إيران، 1426هـ/2005م، ط1، ص72

102 - فاضل المالكي، الغيبة الصغرى والسفراء الأربعة، قم، مركز الأبحاث العقائديّة، 1420هـ/1999م، ط1، ص23

103 - حسين الطبرسي النّوري، جنّة المأوى في ذكر من فاز بلقاء الحجّة، تحقيق مركز الدراسات التخصّصيّة في الإمام المهدي، النجف، 1428هـ/2006م، ط1 يُنظر شهادة بعض علماء شيعة اليمن حول تواصلهم مع الإمام المهدي: صالح عيّاش اليماني، الشيعة في اليمن، تاريخ قديم وحاضر مستمر، بيروت، دار المحجّة البيضاء، 1432هـ/2011م، ط1، ص304

104 - ينظر في العلاقة بين الغيبة والنيابة محمد سند، دعوى السفارة في الغيبة الكبرى، بيروت، دار البلاغة، 1412هـ/1992م، ط1، ص29

105 - روح الله الخميني، مصباح الهداية إلى الخلافة والولاية، بيروت، مؤسسة الأعلمي للطباعة، 1428هـ/2006م، ط1 هو روح الله بن مصطفى بن أحمد الموسوي الخميني (بالفارسية: سيد روحالله موسوى خمينى)، رجل دين سياسي إيراني، ولد في 24 أيلول/سبتمبر 1902م وتوفى في 3 حزيران/يونيو 1989م. وعرف بشدّة معارضته لسلطة الشاه، وأشهر هذا الموقف أكثر من مرّة ودفع أنصاره إلى الثورة، ومن ذلك انتفاضة 5 حزيران 1963م وتسبّبت في نفيه إلى تركيا والعراق وباريس التي عاد منها لقيادة الثورة على الأرض والإطاحة بالشاه والإشراف على قيادة الجمهوريّة الإسلاميّة في الفترة من (1979-1989م). وكان مرجع تقليد لعدد من الشيعة داخل إيران وخارجها بعد أن أصدر رسالته العملية؛ أي مجموعة فتاواه في العبادات والمعاملات في الإسلام. وسمته مجلة التايم (الأمريكية) برجل العام في سنة 1979. المصدر بتاريخ 11/11 /2015م: http: //www. imamkhomeini.com/web1/arabic/showitem.aspx?cid=2209&#38>;h= 19&f=20&pid=2545

106 - كمال مصطفى الشيبي، الصّلة بين التصوّف والتشيّع، ج1، ص498 يُنظر أيضاً: سعد محمد حسن، المهدية في الإسلام منذ أقدم العصور حتى اليوم: دراسة وافية لتاريخها العقدي والسياسي والأدبي، مصر، دار الكتاب العربي، 1953م، ص174 H

يظهر حملها إلّا في غسق الصّباح. وأكّد لها أنّ الله جعله هكذا حتى لا يقتله الفرعون العباسي في رحم أمّه. ولمّا صرخت نرجس عند الغسق أمر الإمام العمّة أن تقرأ آيات محدّدة من القرآن. ففعلت، فسمعت المولود يردّدها من بعدها. ففزعت حكيمة ولم تعد ترى المولود وأمّه فهدّأها الإمام وأمرها أن تحوّل المكان فتحوّلت فرأت الطفل وأمّه مجدّداً. ورغم أنّ هذه الروايات موغلة في التخيّل، وتثير أكثر من سؤال، فإنّ جواد علي مثلاً يبرّر الغريب والعجيب في مرويات المُتَخَيَّل الشيعي قائلاً: «هذا الأمر الغريب هو ما وقع لمريم، أمّ موسى، فقد كانت حاملاً، ومع ذلك فما من أحد لاحظ عليها أنّها تحمل طفلاً حتّى زمن الولادة»[107].

يستند الموقف السنّي الرافض للطرح الشيعي إلى سببين: سبب عقلي منطقي يتمثّل في استحالة عيش الإنسان هذا العدد من القرون، اعتباراً لمعدّل الحياة منذ ظهور الإسلام في الحدّ الأدنى. ويستفيد هذا الموقف من سياق التشكيك في أن يكون الإمام الحادي عشر الحسن العسكري قد خلّف مولوداً أصلاً، ومن الخوارق غير المحبوكة التي أوردتها الروايات الشيعيّة حول المولد[108]. ومن اليسير أن يلاحظ الباحث من خارج المنظومتين التناقض والتضارب بين الروايات في تفاصيل قصّة المولد وما حفّ بما يعتبره الشيعة الغيبة الصّغرى من أخبار ضعيفة وقابلة للطعن والردّ[109]. وسبب مذهبي يكون بموجبه رفض الاعتراف بوجود هذا الإمام، حتّى إن صحّ وجوده، نقضاً لنظريّة الاثني عشريّة في ظل توقّف نسل ذريّة الإمام الحسين من الذّكور عند الإمام الحادي عشر وفي إطار السجال المذهبي بين الجماعتين.

لا يعير الفكر الشيعي أهميّة لهذا النّقد، ويحتجّ لحقيقة وجود الإمام الثاني عشر بمضامين عدد من الأحاديث منها ما أورده النّعماني (ت. 354هـ/965م) في **الغيبة** ونصّه «والذي بعثني بالحقّ بشيرا ونذيرا ليغيبنّ القائم من وُلْدي بعهد معهود إليه منّي حتّى يقول أكثر النّاس: ما لله في آل محمد حاجة، ويشكّ آخرون في ولادته، فمن أدرك زمانه فليتمسّك بدينه ولا يجعل للشيطان إليه سبيلاً فيزيله عن ملّتي ويخرجه عن ديني»[110]. ومرّة أخرى، لا تعير هذه الرواية أهميّة لطبيعة المتلقي حين تقدّم خبراً بمقاس الأزمة التي واجهت الفكر الشيعي داخليّاً وخارجيّاً، فتكون في شكل ردّ على أسئلة ذلك العصر، ولكنّه مرفوع إلى النبي.

---

107 - جواد علي، المهدي المنتظر عند الشيعة الاثني عشريّة، ترجمه عن الألمانيّة أبو العيد دودو، كولونيا- ألمانيا، منشورات الجمل، 2007م، ط2، ص70

108 - أحمد الكاتب، تطوّر الفكر السياسي الشيعي من الشورى إلى ولاية الفقيه، بيروت، دار الانتشار العربي، 2008م، ط6، ص95

109 - رصد جواد علي هذه التناقضات ضمن، المهدي المنتظر عند الشيعة الاثني عشريّة، ص72 لم يشكك أهل السنّة فقط في مسألة المهدي وغيبته وإنّما تسرّب الأمر إلى الشيعة ذاتهم. يقول الشيخ الصّدوق: «وذلك لأنّ الشيعة -الفرقة الاثني عشرية- بعد ما فقدت راعيها تفرقت وارتابت ووقعت في الحيرة لخفاء الأمر عليها. وكان أمر الصاحب عليه السلام منذ أيام السفراء المحمودين إلى أواسط القرن الرابع في ضمير الغيب، لا يكاد يسمع إلا همساً أو من وراء حجاب، لا يعلمه إلا الأوحديون، ولا يعرفه إلا خواص من الشيعة وهم لا يستطيعون الإصحار باسمه ولا وصفه، يعبرون عنه عليه السلام في نواديهم تارة بالصاحب، وأخرى بالغريم، وثالثة بالرجل أو القائم، ويرمزون إليه فيما بين أنفسهم بـــ(م ح م د) وأمر الإمام في تلك الأيام في غاية الاستتار. ومن جانب آخر كثرة الشبهات والتشكيكات التي ظهرت من المخالفين كالزيدية وهم العمدة والكيسانية والإسماعيلية والواقفة في موسى بن جعفر عليهما السلام. فتشابكت هذه العوامل وتتابعت وتضافرت حتى آل الأمر إلى تزلزل العقائد وتحير الناس في أمر الإمام الغائب عليه السلام، وأفضى إلى ارتداد الفئة الناشئة وصرفهم عما كانوا عليه هم وآباؤه»: كمال الدّين وتمام النعمة، تحقيق علي أكبر الغفاري، قم- إيران، مؤسسة النشر الإسلامي 1405هـ/1984م، ص9

110 - محمد بن إبراهيم بن أبي زينب النعماني، الغيبة، بيروت، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، 1403هـ/1983م، ط1، ص124

تدارك الشيخ المفيد (ت. 413هـ/1022م) هذا التشويش والتضارب بين الأخبار جزئيّاً في تبرير الغيبة المطوّلة، وبنى أحداثها على ما حدث مع عدد من الأنبياء مثل يوسف وموسى ويونس بن متّى والخضر. وقال في غيبة الخضر: «الخضر (ع) موجود قبل زمان موسى (ع) إلى وقتنا هذا بإجماع أهل النقل وإتقان أصحاب السير والأخبار، لا يعرف له أحد مستقرّاً ولا يدّعي له اصطحاباً»[111]. واللافت للنظر في هذه المسألة قلّة المرويات عن الإمام المهدي في الكتب الشيعيّة الأربعة، رغم مواكبة عدد من أصحابها الغيبتين. ونقصد تحديداً أبو جعفر محمد بن يعقوب الكليني (ت. 329هـ/941م) صاحب مدوّنة **الكافي** التي تمثّل المصدر الأهم بالنسبة إلى الجماعة الشيعيّة، وهو الذي واكب الغيبة الصغرى كاملة. وتتدعّم مشروعيّة هذا الاستفهام حين نعلم أنّ الكليني خصّص كتاباً في مدوّنته سمّاه **كتاب الحجّة**, ويمثّل في تقديرنا جوهر الفكر الشّيعيّ القائم على مقولتيْ الإمامة والمهدويّة، ولم يروِ عن نائب الإمام علي بن محمد السمري (ت. 329هـ/941م) حديثاً واحداً، رغم معرفته به.

يجد شقّ من المدافعين عن هذه المقولة الإشكاليّة فيما ذُكر من عجيب وغريب حول الإمام الثاني عشر دعماً لها ومبرّراً لحدوثها. يقول عبد الكريم البهبهاني في هذا السّياق: «ومع ثبوت المفهوم المهدوي عند أهل البيت (ع)، يصبح واضحاً أنّ من أبرز مقتضيات هذا المفهوم أن تكون ولادة الإمام الثاني عشر مقرونة بالسريّة والكتمان حتى تتسنّى له الغيبة بعد ذلك والاختفاء عن الأنظار إلى مكان آمن يختاره الله له إلى حين يأذن له بالظّهور»[112]. وقد اضطرّ كبار فقهاء الشيعة إلى الدّفاع عن نظريّة غيبة الإمام واستتاره بعد أن طال أمدها، وقدّموا مجموعة من التبريرات جعلها أحمد الكاتب في ثلاثة عناوين[113].

العنوان الأوّل هو الحكمة المجهولة، ودافع عنها الشيخ الصّدوق وقال بكلّ بساطة: «إنّ إيماننا بعصمة الإمام المهدي يقتضي منّا التسليم بوجود حكمة وراء غيبته»[114]. ومثله قال محمد حسين كاشف الغطاء: «إنّ السؤال عن الحكمة ساقط إذا قامت البراهين على وجوب وجود الإمام في كلّ عصر، وإنّ الأرض لا تخلو من حجّة»[115]. والعنوان الثاني هو نظريّة التمحيص والمقصود بها تمحيص الشيعة لمعرفة الصّادقين منهم. والعنوان الثالث نظريّة الخوف، وهي أكثر النظريات شيوعاً وقبولاً بين الشيعة. وقال الشيخ المفيد في هذا السياق: «خلّف الحسن ابنه المنتظر لدولة الحقّ وكان قد أخفى مولده وستر أمره لصعوبة الوقت وشدّة طلب سلطان الزّمان له واجتهاده في البحث عن أمره»[116].

111 - الشيخ المفيد، المسائل العشر في الغيبة، ص77

112 - عبد الكريم البهبهاني، المهدويّة عند آل البيت، قم- إيران، المجمع العالمي لآل البيت، 1422هـ/2001م، ص29

113 - أحمد الكاتب، تطوّر الفكر السياسي الشيعي من الشورى إلى ولاية الفقيه، ص85

114 - الشيخ الصّدوق، كمال الدّين وتمام النعمة، ص21-85

115 - محمد حسين آل كاشف الغطاء، أصل الشيعة وأصولها، مقارنة مع المذاهب الأربعة، ص71

116 - الشيخ المفيد، الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، ص345

باعتبار أنّ الإمامة الإلهيّة تتأسّس على مقولة «إنّ الأرض لا يجب أن تخلو من إمام»[117]؛ أي من قيادة سياسيّة وروحيّة مصطفاة، فإنّ طول أمد غيبة الإمام المهدي أدخل الجماعة في مرحلة الانتظار، واضطرّ الفقهاء إلى تأصيل المفهوم (الانتظار) وتبريره شرعيّاً، وأدّى إلى تعطيل النشاط السياسي والدّيني إلى حدّ ما، مثل إلغاء صلاة الجمعة في غياب الإمام. وقد أسهم الشيخ الصّدوق (ت. 381هـ/991م) في هذا الجهد في سياق حديثه عن التقيّة زمن الغيبة فقال: «التقيّة واجبة لا يجوز تركها إلى أن يخرج القائم، فمن تركها فقد دخل في نهي الله عزّ وجل ونهي رسوله والأئمّة (ع)، ويجب الاعتقاد أنّ حجّة الله في أرضه وخليفته على عباده في زماننا هذا هو القائم المنتظر بن الحسن... ويجب أن يُعتقد أنّه لا يجوز أن يكون القائم غيره بقي في غيبته ما بقي، ولو بقي عمر الدّنيا لم يكن القائم غيره»[118]. وبقي الإشكال مطروحاً على العامّة والخاصّة من أبناء الجماعة، رغم ظهور مقولتيْ النيابة العامّة وولاية الفقيه، لكونهما لا تحقّقان شرط العصمة والتعيين الإلهي مهما أحيط النائب أو الولي بهالة من التنزيه والقداسة.

117 - يقول محمد بن الحسن الطّوسي : «إنّ دفع الإمامة كدفع النبوّة لا فرق بينهما؛ لأنّ الجهل بالإمامة كجهل النبوّة»، التبيان، طبعة النجف، 1963م، ج9، ص351

118 - الشيخ الصّدوق، الهداية، قم- إيران، مؤسسة الإمام المهدي، 1418هـ/1997م، ص47

خاتمة

تنطلق كلّ فكرة جامعة من حدث تستند إليه الجماعة المحتضنة لها في صناعة ذاكرتها وبناء اجتماعها. ولا يهم في هذا السياق، إن كان الحدث قد وقع جزئيّاً أو كليّاً، ولا معنى إلّا للتفاصيل التي ينسجها المخيال الفردي لزعماء الجماعة، ويباركها المتخيّل الجمعي من خلال الممارسة الطقسيّة التي تخرج بها من التاريخي إلى الميتا- تاريخي ومن الدنيوي إلى المقدّس. ومثّل اجتماع السقيفة عند الشيعة النواة التي تشكّلت منها وحولها ذاكرتهم الجمعيّة. لقد تحوّل اليوم الذي لم يتولّ فيه علي بن أبي طالب إمارة المسلمين حدثا مؤسّسا ماديّاً وفكريّاً.

ففي المستوى المادي اندلعت حروب طاحنة بين عليّ وشيعته من جهة، وشقّ من المسلمين من جهة ثانية. انهزم علي عسكريّا ولكنّ ابنه الحسين رفض الاستسلام وواصل طريق المواجهة، وانهزم بدوره على أرض الطف من كربلاء بشكل دراماتيكي نتيجة اختلال التوازن المادي بينه وبين الأمويين. وفقد الشيعة بموته كلّ أمل في الرهان على القوّة الماديّة لاستعادة ما اعتقدوا أنّه حقّهم. ومن أجل سدّ هذا النقص، حوّلت الجماعة الصراع من المستوى المادّي إلى المستوى الفكري والثقافي، وأصبحت الأحداث مجموعة من المفاهيم العقائديّة. فحدث السقيفة الذي اختلف فيه المسلمون حول خليفة الرسول عوّضه مفهوم الوصيّة، وحروب الفتنة عوّضها مفهوم إمامة العلويين الإلهيّة، وواقعة كربلاء التي غاب فيها آخر زعيم علوي كان بإمكانه مواصلة الثورة واستعادة زمام المبادرة عوّضها مفهوم المهدويّة الذي يعني ظهور المنقذ.

رافقت هذا التحوّل من الزمني إلى المقدّس صناعة مُتخَيّل جمعي للشيعة فقد فيه الزمن التاريخي كلّ معنى، وحلّ التاريخ الدّيني بآلياته الخاصّة محلّ التاريخ العلمي، وأصبحت الأحداث مفاهيم مقدّسة قُدّر لها أن تحدث بذلك الشكل تطبيقاً لمشيئة الله وتصديقاً لما ورد على لسان نبيّه وأوليائه. ويمثّل الوعي بهذا الفاصل وهذه السيرورة، آليّةً مهمّة في مقاربة فكر الجماعة الشيعية في مستوى أوّل وفكر الجماعات الدينية في مستوى ثان.

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

info@mominoun.com
www.mominoun.com

All rights reserved © 2023

جميع الحقوق محفوظة © 2023